المحاضرة الثالثة

تطور تعليمية اللغات من التعليم التقليدي إلى النظريات الحديثة

شهدت تعليمية اللغات تطورًا كبيرًا على مدار العقود نتيجة لتغيرات واسعة في فهم المتخصصين لكيفية تعلم اللغة وتدريسها، حيث كانت ترتكز في بدايتها الأولى على تعليم قواعد اللغة معتمدة على أساليب تلقين تقليدية مثل التكرار والترجمة والحفظ، ومع تقدّم الدراسات في علم النفس التربوي واللسانيات التطبيقية برزت الحاجة إلى تطوير استراتيجيات تعليمية جديدة تتلاءم مع طبيعة التعلّم الفطرية لدى المتعلم وتلبي احتياجاته للتواصل.

وفي هذه المحاضرة سنتناول أهم التطورات التي شهدها حقل تعليمية اللغات، بالتركيز على التحولات من الأساليب التقليدية إلى اعتماد النظريات الحديثة، والتي أحدثت نقلة نوعية في تعليم وتعلم اللغات.

أولا : النظريات التقليدية في تعليميّة اللغات

التعليم التقليدي هو نهج تعليمي يعتمد بشكل رئيسي على دور المعلم كمرسل للمعلومات والمتعلم بوصفه مستقبلا لها، حيث يتم تقديم المعرفة من خلال الشرح والتلقين، بينما يتلقى الطالب المحتوى بشكل سلبي في أغلب الأحيان. ويعتمد التعليم التقليدي على التفاعل أحادي الاتجاه حيث يكون دور الطالب مقتصرًا على الاستماع وحفظ المعلومات ثم استرجاعها عند الامتحان.

وكانت الغاية من التعليم التقليدي تكوين قاعدة معرفية لدى المتعلمين من مفردات اللغة وبنيتها النحوية. وعلى الرغم من أن هذه الأساليب خدمت تعليم اللغات لفترات طويلة، إلا أنها لم تكن تفي بتطوير مهارات التواصل الفعلي للمتعلمين، أو تعزيز قدراتهم على الاستخدام الطبيعي، وعادةً ما يرتبط هذا النمط بالأساليب التقليدية مثل المحاضرات، والكتب المدرسية، والمذاكرة من أجل الاختبارات. كما يتم التركيز بشكل كبير على الانضباط في الفصل الدراسي واحترام القواعد، وغالبًا ما يكون تقييم الأداء مبنيًا على قدرة الطالب على استرجاع المعرفة التي تلقاها. وفيما يلي أبرز الأساليب التي كانت سائدة في هذه المرحلة:

1- التلقين والحفظ:

اعتمد التعليم التقليدي في بداياته على والتلقين والحفظ كوسيلة رئيسية لتعلم اللغات، وكان الطلاب يكررون الكلمات والجمل بغرض الحفظ، دون التركيز على فهم المعنى أو كيفية استخدام اللغة في السياقات اليومية، وعلى الرغم من أن هذه الطريقة كانت فعالة في تعليم بعض المفردات الأساسية، إلا أنها لم تعزز من قدرة المتعلمين على التواصل أو التفكير النقدي باللغة.

2- الترجمة : هي واحدة من أقدم الأساليب في تدريس اللغات الأجنبية، حيث نشأت في أوروبا خلال القرن التاسع عشر وتطورت أساسًا من تعليم اللغة اللاتينية. تعتمد هذه الطريقة بشكل رئيسي على فهم قواعد اللغة وترجمتها، والتركيز على تحليل النصوص المكتوبة والقدرة على ترجمتها من اللغة الأم إلى اللغة المستهدفة والعكس، ويطلق على هذا الأسلوب من التعليم **طريقة النحو والترجمة أو الطريقة القواعدية-الترجمية** ، وكانت تُستخدم غالبًا في التعليم النظامي بهدف التعرف على قواعد اللغة وهيكلها. وقد ساعدت هذه الطريقة المتعلمين على فهم قواعد اللغة إلا أنها لم تقدم فائدة كبيرة في تطوير المهارات الشفوية والتفاعلية.

2-2-الخصائص الأساسية لطريقة النحو والترجمة :

- **التركيز على القواعد :** يتم التركيز على القواعد النحوية للغة المستهدفة بشكل مكثف، حيث يتم شرح بنية الجملة، وتصريف الأفعال، وأنماط الاستخدام اللغوي، مع التأكيد على القواعد الصارمة والمفصلة.

- **التدريب على الترجمة :**تتضمن هذه الطريقة ترجمة النصوص والجمل من اللغة الأم إلى اللغة المستهدفة والعكس، مما يساعد المتعلمين على فهم المعاني والدلالات المختلفة للكلمات والجمل.

- **التركيز على الكتابة والقراءة :**تهتم هذه الطريقة بتنمية مهارتي القراءة والكتابة بالدرجة الأولى حيث يكون التركيز أقل على مهارات الاستماع والتحدث، إذ يُفترض أن مهارات التواصل ليست الهدف الرئيسي.

– **الاستخدام المكثف للغة الأم:** تتم معظم الدروس باللغة الأم، حيث تُستخدم لشرح القواعد ومعاني الكلمات وتقديم الترجمة.

– **حفظ المفردات** :يتم تعليم الطلبة قائمة من المفردات وحفظها –غالبًا– في سياقها الفردي دون ربطها بسياقات التواصلي أو الحياتي.

ثانيا: النظريات الحديثة في تعليمية اللغات

شهد تعليم اللغات تحولاً ملحوظًا في منتصف القرن العشرين نتيجة لعدد من العوامل– العولمة الانفتاح والتواصل مع الثقافات المختلفة– التي ظهرت بشكل متسارع بعد الحرب العالمية الثانية حيث بدأ العلماء والمربون بدءا من الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين بمراجعة أساليب التعليم، وذلك بالتزامن مع تطور الأبحاث في مجالات علم النفس التربوي واللغويات التطبيقية مما أدى إلى ظهور نظريات جديدة تسلط الضوء على دور المتعلم النشط، وأهمية التفاعل الاجتماعي والجوانب النفسية في عملية التعلم.

1– النظرية السلوكية:

هي إحدى النظريات البارزة وأكثرها تأثيرا في علم النفس التربوي وعلم اللغة، لاسيما فيما يتعلق بكيفية فهم عمليات تعلم اللغة واكتسابها. قامت النظرية السلوكية بتشكيل أسس منهجية قائمة على فهم أن تعلّم اللغة يتم من خلال سلسلة من الاستجابات السلوكية المكتسبة عبر التعزيز والتكرار فالنظرية السلوكية إذا تُعنى بفهم سلوك المتعلم وتعديله باستخدام مجموعة من الاستجابات الشرطية والتعزيزات الإيجابية والسلبية، حيث ترى هذه النظرية أن تعلم اللغة يتحقق من خلال التعلم التجريبي المتكرر والاستجابات المباشرة للتعزيز أو العقاب، وأن السلوك اللغوي يتشكل نتيجة لعملية اكتساب تكرارية ومدعومة بالتغذية الراجعة، حيث يعتمد المتعلم على المحاكاة والتكرار والاستجابة للمحفزات الخارجية للوصول إلى درجة التمكن من اللغة.

1-1-أهم مبادئ النظرية السلوكية في تعليم اللغة

تعتمد النظرية السلوكية على مجموعة من المبادئ الأساسية التي توضح كيفية التعلم وتطبيقاته في تعليم اللغة، وأهمها:

- **التعلم بالاقتران** :يرتكز هذا المبدأ على عملية الربط بين المنبه والاستجابة، حيث يتم الربط بين الكلمة ومعناها عبر تكرارها في سياقات متعددة حتى تصبح مترسخة في ذهن المتعلم.

- **التكرار والتعزيز** :يعد التكرار والتعزيز حجر الزاوية في هذه النظرية، فعند تكرار جملة أو عبارة معينة، يعزز المعلم تعلم المتعلم عبر مكافأته أو تحفيزه، ما يشجعه على التكرار والتفاعل.

- **التعلم من خلال التقليد والمحاكاة** :يعتقد السلوكيون أن الأطفال يتعلمون اللغة عبر تقليد ما يسمعونه من كلمات وعبارات، ويكررونها حتى تصبح جزءًا من سلوكهم اللغوي.

1-2- تطبيقات النظرية السلوكية في تعليم اللغة

- **التدريب على التكرار** :يتم تعليم الطلبة اللغة من خلال تكرار العبارات والجمل حتى يتم تثبيتها في الذاكرة، وتساعد هذه التقنية في ترسيخ قواعد اللغة والمفردات.

- **تقنيات المحاكاة والنمذجة** :يتمثل ذلك في جعل المتعلمين يقلدون نماذج لغوية صحيحة، بحيث يتعلمون من خلال مشاهدة الأداء الصحيح، ومحاولة محاكاته.

- **التحفيز والتعزيز** :تستخدم المعززات مثل التشجيع والثناء عند استخدام المتعلمين للغة بشكل صحيح، مما يعزز رغبتهم في تكرار السلوك اللغوي المرغوب.

- **استخدام العقاب لتجنب الأخطاء** :أحيانًا يُستخدم العقاب (كالتنبيه) لتقليل تكرار الأخطاء اللغوية مما يشجع المتعلم على الاستجابة بشكل أكثر دقة.

2- النظرية البنائية:

هي نظرية تعليميّة تؤكد أن المتعلم يبني معرفته من خلال التفاعل النشط مع البيئة المحيطة حيث يُعد التعلم عملية بناء نشطة ترتبط بتجارب المتعلم السابقة. ويَرى البنائيون أن المعرفة ليست شيئًا يُنقل من المعلم إلى المتعلم، بل هي نتيجة لعملية يقوم بها المتعلم من خلال التفاعل مع العالم المحيط به، مما يؤدي إلى بناء المعنى وتلقي المفاهيم بشكل شخصي.

ظهرت النظرية البنائية في أوائل القرن العشرين، وتطورت عبر جهود مجموعة من العلماء الذين ركزوا على مفهوم التعلم بوصفه عملية بنائية نشطة، وأهمهم: **جان بياجيه** ، **ليف فيغوتسكي**، **جيروم برونر** ، **إرنست فون جلاسرسفيلد** .

2-2- مبادئ النظرية البنائية في التعليم

تستند النظرية البنائية إلى مجموعة من المبادئ الأساسية التي تميزها عن غيرها من النظريات التعليمية:

1. **التعلم بوصفه عملية بناء نشطة** :يعدّ المتعلم مشاركًا نشطًا في بناء المعرفة من خلال التفاعل مع البيئة والتجارب العملية، وليس مجرد مستقبل سلبي للمعلومات.
2. **أهمية المعرفة السابقة** :تلعب المعرفة السابقة للمتعلم دورًا كبيرًا في فهمه للمعلومات الجديدة، حيث يضيف المتعلم المعلومات الجديدة إلى معرفته السابقة ويعدلها ويعيد تنظيمها.
3. **التعلم من خلال حل المشكلات** :تعتمد البنائية على تقديم مهام تعليمية تتطلب من المتعلم التفكير النقدي وحل المشكلات، ممّا يسهم في تنمية مهاراته المعرفية ويجعل التعلم أكثر فعالية.
4. **التفاعل الاجتماعي** :يرى البنائيون الاجتماعيون، مثل فيغوتسكي، أن التعلم هو عملية اجتماعية، حيث يساعد التفاعل مع الآخرين في تبادل الأفكار وتطوير المفاهيم.

5. **التعلم السياقي** :المعرفة ليست مجرد مجموعة من الحقائق والقوانين، بل هي مرتبطة بالسياق الذي يتم فيه التعلم. لذلك يجب أن يكون التعليم متصلاً بالسياقات الحياتية التي يمكن للمتعلم أن يطبق فيها معرفته.
6. **التعليم الذاتي والتعلم الموجه ذاتيًا** :تشجع البنائية المتعلمين على تطوير مهاراتهم في البحث والاكتشاف والتعلم الذاتي، بحيث يصبحون متعلمين مستقلين قادرين على التعلم مدى الحياة.

2-3-تطبيقات النظرية البنائية في تعليم اللغة

1. **التعلم من خلال الأنشطة** :يُشجَّع المتعلمون على ممارسة الأنشطة التي تتطلب التفاعل مع النصوص أو المفردات الجديدة، حيث يتم تشجيعهم على قراءة القصص، ومحاكاة الحوارات واستخدام المفردات في سياقات متنوعة.
2. **حل المشكلات** :يتم تقديم مشاكل أو مهام تتطلب من المتعلمين التفكير وتحليل النصوص، مثل فهم المقاطع الصعبة، أو كتابة وتلخيص نص معقد، أو تفسير المعاني الضمنية.
3. **التعلم التعاوني** :يُمثل التعلم التعاوني أهم تطبيقات النظرية البنائية، حيث يُشجع الطلبة على العمل ضمن مجموعات صغيرة، والتفاعل مع زملائهم، وتبادل الأفكار، مما يطور مهاراتهم اللغوية والمعرفية.
4. **التعلم المستند إلى المشاريع** :في هذا النوع من التعلم، يقوم المتعلمون بتنفيذ مشروع معين مرتبط باللغة، مثل إعداد بحث أو كتابة قصة قصيرة، مما يسمح لهم بتطبيق معرفتهم بطريقة إبداعية ومفيدة.
5. **التعلم من خلال الاكتشاف** :يتم تقديم النصوص اللغوية بطريقة تجعل المتعلمين يكتشفون القواعد والمفاهيم اللغوية بأنفسهم بدلاً من تقديمها بشكل مباشر، حيث يحاولون بناء فهمهم الخاص للمفردات والتراكيب الجديدة.

3- النظرية التواصلية (Communicative Language Teaching)

النظرية التواصلية في تعليم اللغات هي منهجية تعليمية تركز على تطوير القدرة التواصلية لدى المتعلمين، وتهدف إلى تمكينهم من استخدام اللغة بفعالية في مواقف الحياة اليومية. وهي واحدة من أكثر النظريات تأثيرًا في تعليم اللغات الحديثة، وقد ظهرت كرد فعل على الأساليب التقليدية التي ركزت على القواعد والترجمة، وبدلًا من ذلك فهي تركز على استخدام اللغة بشكل عملي وتفاعلي.

ظهرت النظرية التواصلية في سبعينيات القرن العشرين عندما بدأت مناهج تعليم اللغات التقليدية تتعرض للنقد بسبب تركيزها على القواعد وعدم مراعاتها لمهارات التواصل العملية، وتدريجيًا تحول الاهتمام نحو تطوير قدرة المتعلم على استخدام اللغة في مواقف الحياة الحقيقية.

من أبرز مؤسسي النظرية التواصلية **:ديل هايمز:(Dell Hymes)**

مايكل هاليدي:(Michael Halliday) نوام تشومسكي:(Noam Chomsky)

مايكل كانال (Michael Canale) وميريل سوين:(Merrill Swain)

3-1- مبادئ النظرية التواصلية في تعليم اللغات

تستند النظرية التواصلية على مجموعة من المبادئ الأساسية :

- **التركيز على الكفاءة التواصلية** :يرى مؤيدو النظرية التواصلية أن الهدف من تعلم اللغة هو تطوير الكفاءة التواصلية، أي قدرة المتعلم على استخدام اللغة في سياقات حياتية واقعية، وليس فقط معرفة القواعد.

- **استخدام اللغة في سياقات واقعية** :تعتمد النظرية التواصلية على وضع المتعلمين في مواقف شبيهة بالحياة الواقعية، حيث يستخدمون اللغة للتفاعل والتعبير عن أنفسهم.

- **التعلم من خلال التفاعل** :يعدّ التفاعل مع الآخرين من أهم ركائز النظرية التواصلية، حيث يتم التعلم من خلال المحادثات الحقيقية بين المتعلمين، وهو ما يساعدهم على تطوير مهاراتهم اللغوية والاجتماعية في الوقت ذاته.

- **التركيز على الوظائف اللغوية** : تعطي النظرية التواصلية أهمية كبرى لوظائف اللغة المختلفة حيث يتعلم الطلبة كيفية طرح الأسئلة، وإبداء الرأي، والموافقة أو الرفض، والتعبير عن المشاعر والأفكار.

- **التكامل بين المهارات اللغوية** :تسعى النظرية التواصلية إلى تطوير جميع المهارات اللغوية (القراءة، الكتابة، الاستماع، والتحدث) بشكل متكامل، بحيث يستطيع المتعلمون استخدامها بسلاسة في مواقف التواصل.

- **أهمية الاستقلالية في التعلم** :تعزز النظرية التواصلية استقلالية المتعلمين، حيث تشجعهم على البحث والتعلم الذاتي من خلال التفاعل، مما يساعدهم على تطوير مهاراتهم بشكل مستقل.

3-2- مكونات الكفاءة التواصلية

قدّم مايكل كانال وميريل سوين أربعة مكونات رئيسية للكفاءة التواصلية، التي يجب تنميتها لدى متعلمي اللغة:

- **الكفاءة النحوية (Grammatical Competence)**: تشمل معرفة القواعد، والمفردات، والصوتيات، وغيرها من الجوانب اللغوية، حيث يجب أن يكون المتعلم قادرًا على تكوين جمل سليمة من الناحية اللغوية.

- **الكفاءة الاجتماعية (Sociolinguistic Competence)**: تتعلق بقدرة المتعلم على استخدام اللغة بشكل مناسب في سياقات اجتماعية مختلفة، وفقًا للأعراف الثقافية والاجتماعية.

– **الكفاءة الاستراتيجية (Strategic Competence):** تشمل القدرة على استخدام استراتيجيات معينة لتعويض أي نقص في المعرفة اللغوية، مثل إعادة الصياغة أو استخدام الإشارات غير اللفظية.

– **الكفاءة الخطابية (Discourse Competence):** تتعلق بقدرة المتعلم على تنظيم وترتيب الكلام بشكل منسق ومترابط، مما يسهل التواصل الفعّال.

3-3- تطبيقات النظرية التواصلية في تعليم اللغات

أسهمت النظرية التواصلية في تطوير عدد من الأساليب والأنشطة التعليمية التي تركز على تفاعل المتعلمين وتمكينهم من استخدام اللغة بشكل عملي، من أبرزها :

– **التعلم التعاوني** :تشجع الأنشطة التواصلية على التعاون بين المتعلمين من خلال العمل في مجموعات صغيرة، حيث يتفاعلون ويتبادلون الأفكار.

– **أدوار المحاكاة (Role Play):** تُعد أنشطة المحاكاة من أهم الأدوات في التعليم التواصلي حيث يتقمص الطلاب أدوارًا معينة ويقومون بممارسة مواقف حياتية باستخدام اللغة المستهدفة.

– **المشاريع اللغوية** :من خلال تكليف المتعلمين بمشاريع لغوية، مثل إعداد عروض تقديمية أو تنظيم حوارات نقاشية، يتمكن المتعلمون من ممارسة اللغة بشكل تطبيقي.

– **الألعاب التعليمية** :تتضمن أنشطة تعليمية مثل الألعاب والمسابقات اللغوية، حيث يتعلم الطلبة استخدام اللغة بطريقة ممتعة وغير رسمية.

– **المهام التواصلية** : تعتمد هذه التقنية على تكليف المتعلمين بمهام تحتاج إلى التواصل وحل المشكلات باستخدام اللغة المستهدفة.

– **الأنشطة الحوارية** :تُعد الأنشطة التي تتضمن الحوار والمناقشة من الوسائل الأساسية في التعليم التواصلي، حيث يُتاح للمتعلمين التفاعل وتبادل الأفكار مع زملائهم.